السيميائية والتطبيقات العربية

خالد بن محمد الجديع
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض-
المملكة العربية السعودية

ملخص :
نريد في مداخلتنا هذه التحدث على المنجزات السيميائية لكوكبة من السميائيين العرب: محمد مفتاح و عبد المالك مرتاض و محمد العبسي. يطبق الباحثون الثلاثة الإجراءات السيميائية على مجموعة من الأعمال الأدبية العربية خصوصا تلك المتعلقة بجهود غريماس.
سنحاول في هذه الدراسة تقديم رؤية ناقدة لهذه المنجزات.

Résumé :
Nous abordons dans cette communication les contributions de certains sémioticiens éminents dans le développement de la sémiotique littéraire arabe. Il s'agit entre autres de Mohamed Meftah, Abdelmalek Mortadh et Mohamed al-Absi. Les trois sémioticiens appliquent les acquis de la sémiotique en général mais surtout ceux de la sémiotique de Greimas. Le corpus est tiré de textes littéraires arabes. Nous donnons une vision critique de ces contributions.

مدخل

يروم الدرس النقدي الحديث عند تعامله مع النص الأدبي تقديم مقاربات تستنطق الدلالات المتوارية داخله ، وبقدر فاعلية هذا المنهج أو ذاك في الإمساك بتلابيب الأثر الفني، وكشف برنامجه يكون التقدم باتجاهه .

وتعد السيميائية (semiotics) من أهم المناهج النصية التي اهتمت بتحليل العمل الأدبي ودراسته، وقد قدمت في عالمنا العربي مجموعة من المقاربات التي تفيد من مفاهيم هذا المنهج وآلياته عند التماس مع العمل الأدبي ، وكثيرا ما قدم الباحثون حول هذا المنهج رؤية نظرية لطبيعته ونجاعته.

وأحسب أن تلك المقاربات السيميائية قد أسهمت في تطوير وجهة النظر حول النص الأدبي وكان لها إضافات علمية ، من حقها علينا أن ترصد وأن يعترف بفاعليتها.

ومن هنا فإن هذا البحث سيعنى بالوقوف عند نتاج ثلاثة من الباحثين الذين كان لهم إسهام رائد في الدرس السيميائي وهم محمد مفتاح وعبدالملك مرتاض ومحمد العبسي .

ويعود اختياري لهؤلاء دون سواهم إلى ما يتمتعون به على الصعيد النقدي من شهرة علمية وإلى وضوح المسار الذي تبناه كل واحد منهم .

هذا بالإضافة إلى أن كلا منهم قد أسهم إلى جانب التنظير حول المنهج بدراسة تطبيقية مارس من خلالها تفعيل آليات هذه النظرية ومفاهيمها عن طريق اختيار نص أدبي رآه جديرا بهذه المعالجة .

وأحسب أنه من الضروري قبل أن أتحاور مع أعمال هؤلاء النقاد أن أقدم مهادا نظريا للمنهج السيميائي يعقبه وقفة عند جهودهم ، أتناول فيها كل واحد منهم منفردا عن صاحبه ليجيء هذا العمل في ثلاثة محاور تشكل لحمة هذا البحث .

مهاد نظري

يأتي الركض في مضمار السيميائية (semiotics) ليشكل خيارا يتم من خلاله فحص الأداة النقدية التي تعارك المنتج الإبداعي ، لا لتشرحه أو لتقدم معانيه الوهلية، وإنما يناط بها خلخلة أطرافه مع تحديد مناطق التصويب بعيدا عن الدلالات الاتفاقية التي يسخو بها العمل في اللحظات الأولى من التماس معه .

ومن المقرر عند النقاد أن السيميائية "علم يهتم بدراسة حياة العلامات" (بيار غيرو،1984، ص، 5) فقراءة حياة العلامة (sign) وتتبع أطوارها ورصد مساراتها يعد الركن الركين في الدرس السيميائي، وهي عملة ذات وجهين: أحدهما الدالّ المتمثل في المشهد الحسي السمعي ، والآخر المدلول المتجلي في اللوحة الذهنية المستدعاة من قِبَل ذلك المشهد المسموع.

على أنه لا يمكن مقاربة تلك العلامة إلا من خلال سلسلة من الإجراءات التي تبدأ باتحاد وجهي هذه العملة (اللغة – المحتوى) وتمر باقتناص الكلم ، ذلك أن اللفظ لا يعد علامة إلا إذا عينه الناقد السيميائي ؛(أمبرتو إيكو،2005 ص.68) لأنه المناص الذي يحتكم إليه في هاته العملية ، ولا يكون هذا التعيين إلا وفق ظروف رمزية تضم لفيفا من الشفرات التواصلية .

وعندما نفتش عن لحظة الانطلاق الأولى للدرس السيميائي فإننا سنحيل على علمين رائدين هما الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس (1839-1914م) والعالم السويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913م)(أنظر: دانيال تشاندلر 2008م ، ص30) .

على أن العمل لدى هذين الرائدين لم يتم عن طريق التعاون ، إذ كان كل واحد منهما يعمل بمعزل عن الآخر ، حيث لم يلتقيا ولم يقرأ أحدهما للآخر(أنظر: آن إينو وآخرون ، ترجمة رشيد بن مالك 8م ، ص31) .

ويمكن باطمئنان شديد أن نعد تصنيف العلامات الذي قدمه بيرس (Peirce) الشرارة الكبرى التي قدحت بإيراء تام مضيئة مسالك الدرس السيميائي ، حيث وجه العلامة نحو ثلاثة مفارق(أنظر: طائع الحداوي2006م ، ص304) . ومن خلال تأملي لها في كثير من الكتب النقدية ، يمكن أن أوضحها بالآتي :

1- علامة المماثلة : وترد أيضا باسم علامة المشابهة أو الأيقونة (Icon) ، وتكون العُلْقة بينها وبين ما تدل عليه قائمة على التماثل أو التشابه ، ويمكن أن نمثل لهذا المفهوم بمجسم الكرة الأرضية الصغير المصنوع ليقرب لنا صورة الكرة الأرضية الفعلية .

2- القرينة (Index) : وتسمى أحيانا الشاهد أو الأثر ؛ لأنها مؤشر من داخل النص يومئ إلى موضوع مربوط به ، وتكون العلاقة بينهما قائمة على الاقتران ، فالحرارة التي تصيب الجسم - على سبيل المثال - ليست مرضا ، وإنما هي عرض لوجوده ، وهي السبيل إلى اكتشافه ، ورائحة الاحتراق ليست هي المشكلة الحقيقية ، وإنما هي الدالة على وجود النار ، ويمكن أن يدخل بامتياز في هذا اللون من العلامات قول العرب : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير .

3- الرمز (symbol) : وفي هذا النوع من العلامات يكون التعالق قائما على الاصطلاح والمواضعة ، فلا تشابه ولا تواصل قرائني ، كما في القسمين السالفين ، ويمكن أن نرى أمثلة على هذا الصنف في كثير من الشعارات الإشهارية ، وحتى أقرب مفهوم هذا النوع فإني أسوق بعض الأمثلة على ذلك ، فالتفاحة المقضومة تحيل إلى Apple Macintosh ، وصورة حيوان الكنغر تستحضر منتخب استراليا لكرة القدم .

ووفق هذا المألف من الأنواع الإشارية يمكن أن يعين الناقد مضيئات النص ، بحيث يجعل المنتج مكونا من مجموعة من العلامات ، أو يَعُدُّ الأثر الأدبي كاملا وحدة علاماتية متضافرة تشير إلى رسالة بعينها .

والنص لا يولد كاملا ، فهو بحسب رأي غريماس (Greimas) يمر بمجموعة من الأطوار التي ينبغي أن يدركها القارئ (أنظر: جوزيف كورتيس، ترجمة جمال حضري ، 2010م ، ص76) ، ومن هنا قام هذا الناقد باقتراح برنامج سردي يتضمن مجموعة من الأدوار التي يتعاقب على تأديتها أكثر من عنصر ، ويعرف هذا البرنامج بالمربع السيميائي ، وهو مكون من مرسل ومرسل إليه وعامل معيق وآخر مساعد وحدث أو موضوع .

تتوسط هذا البرنامج عند مقاربة النص عمليتان مهمتان تنطلق أولاهما عند التنظير من المستوى الدلالي المنطقي وتنتهي الأخرى بالمستوى الخطابي(انظر : المنصف عاشور ، 1980م ، ص7 .) ، لكن الأمر عند التطبيق يكون معكوسا، إذ لابد للناقد أن يبدأ بالمستوى الخطابي ثم ينتقل إلى المستوى السردي ليختم بالمستوى السيميائي الدلالي الذي يهتم بالكشف عن البنية العميقة في النص .

ويدخل علم الرياضيات والهندسة عالم السيميائية من أوسع الأبواب إذ يحيل غريماس على كثير من العمليات والمصطلحات المتعلقة بهذين العلمين (انظر : أحمد بلشهاب ، 1986م ، ص151.) وقد رسم السيميائيون خطاطة لمسيرة العلامة تتكون من عناصر أربعة ، هي :

1 - التطويع : وفيه يتم لمّ شمل الأجزاء المتناثرة ، والاستعداد للحراك .
2 - القدرة : ومن خلاله تبدأ المسيرة وتولد لحظة الانطلاق .
3 - الإنجاز : وبه نرى التحركات الفعلية المؤثرة في مسار العمل .
4 - الجزاء : وهو نهاية المطاف ، وعاقبة العمل الذي تم في العنصر السابق .

ولعل أكبر مشكلة واجهت المعالجات العربية وفق هذا المنهج تتمثل في تَرسُّم كثير من النقاد ترسانة شكلية تسير على طرائق نمطية جعلت النص حبيس خطاطات جامدة لا روح فيها .

ومن هنا جاءت مرتكزات أمبرتو إيكو (Umberto Eco) لتنقذ الدرس السيميائي من جفافه ، وتبعث فيه الحيوية من جديد ، بدا ذلك من خلال عدم اعتماده على خطاطات جاهزة يتحيز لها الناقد عند مقاربة العمل الأدبي ، فهو لا يقدم إجراءات قارَّة يمكن للناقد أن يسلكها حتى يكون سيميائيا ، وإنما يطرح حزمة من المفاهيم التي يتحول بها القارئ إلى مبدع يقدم عملا موازيا بإزاء الأثر الأدبي .

وقبل أن أتحدث عن بعض هذه المفاهيم أود التأكيد على أن السيميائية ليست منهجا واحدا ، وإنما هي سيميائيات كما ظهر في التحول السالف الذي أشرت إليه ، وربما عَلِق في أذهان نفر من قراء السيميائية أن مفاهيمها تنحصر في مربع غريماس وفي مستويات النص، وهذا التصور مع بالغ الأسف يبدو بشكل واضح في نظرة عدد غير قليل من المتعاملين معها .

ويمكن أن نعد من أنواعها : السيميائية التواصلية ، والسيميائية التأويلية ، والسيميائية البارتية (نسبة إلى بارت) وسيميائية الأهواء ... إلخ (انظر : عبدالواحد المرابط ، 2010م، ص19 .) .

إن الغفلة عن أن السيميائية سيميائيات قد قادت إلى هذا تصورات غالطة في التعامل مع هذا المنهج ، مع أن خيارات الحراك داخل هذا المنهج كثيرة، ويمكن لمن تمكَّن من تشغيل بعض المفاهيم السيميائية أن يكون سيميائيا بامتياز ، ومع إيكو حقق الدرس السيميائية فتحا نقديا من خلال تقديمه مقاربات تهدف إلى تنشيط التراكيب لملء بياض النص ، بالاستناد إلى أن العمل الأدبي آلة كسول ينبغي ألا يراهن الناقد عليها .

ويمكن أن نحيل بهذا الصدد إلى مجموعة من الكتب، على رأسها : كتاب بول ريكور
(نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى) الذي ترجمه سعيد الغانمي ، وكتاب أمبرتو إيكو(التأويل بين السيميائيات والتفكيكية) الذي ترجمه سعيد بنكراد ، والجهد العربي التلييني الذي أنجزه رشيد الإدريسي تحت عنوان (سيمياء التأويل) .

لقد تمكن إيكو من توسيع مفهوم المؤولة ، فهي ليست عنده علامة تشرح علامة أخرى فحسب ، وإنما حاول ربطها بالنظرية التداولية مستثمرا كل ما ينتج عن هذا الربط داخل دائرة التضمينات والاستدلالات والاقتضاءات .

وتحت ما يسميه إيكو الحيدان الهرمسي – وفق ترجمة الإدريسي – يقدم شبكة علائقية تكمن خاصيتها الأساسية في المهارة غير المراقبة في الانزلاق من مدلول إلى آخر ، ومن تشابه إلى مثله ، ومن ترابط إلى ثان ، وفق نشوء طوريّ ينطلق فيه المحلل من علامة محددة ، مارا بسلسلة تترابط فيما بينها إلى أن ينتهي إلى علامة لا علاقة لها البتة مع التي تم الانطلاق منها(انظر : رشيد الإدريسي ، 1421ه-2000م ، ص 23.).

إن الاشتغال الواعي على هذه المفاهيم التأويلية وحده كاف لكسر نمطية التحليل ، وإشعال الحس النقدي الرائم اقتناص الأسلحة الناجعة ، ومن هنا فليس شرطا أن نظل ندور في فلك خطاطة غريماس حتى نوسم بأننا سيميائيون .

المحور الأول . محمد مفتاح وسيمياء الشعر القديم :

يذكر مفتاح في الأسطر الأولى من هذا الكتاب أن هذا العمل كان مجموعة من المحاضرات التي ألقها على تلاميذ الصف الرابع عام 1981- 1982م ، بغية بث روح البحث المتعمق وفتح آفاق جديدة لدراسة الأدب (انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص5 .) .

وقد ذكر أنه اختار قصيدة أبي البقاء الرندي ليطبق عليها عناصر نحتها مما ورد عند بعض النقاد العرب القدامى من مبادئ ، بالإضافة إلى الإفادة مما انتهت إليه الدراسات الشعرية السيميائية ، معلنا أن مشروعه داخل ضمن القراء المتعددة(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص5 .) .

وتعني هذه الجملة التي أطلقها مفتاح في الحروف الأولى من منجزه أن مقاربته لن تكون خالصة في الدرس السيميائي ، وإنما ستفيد من مناهج أخرى ، سنكشف عنها في موطنها .

وينص مفتاح على أن كتابه مكون من قسمين : نظري وتطبيقي ، وحتى أكون دقيقا فإني أورد عبارته بنصها يقول : " والمحاولة تتكون من قسمين :

نظري ، ويحتوي على :

*بعض المعطيات المتعلقة بالشاعر وبالقصيدة .

*قراءة القصيدة على ضوء معايير عصرها .

*قراءتها على ضوء المناهج الحديثة ، وهذا هو جوهر هذا القسم .

تطبيقي، ويشمل محورين رئيسين تحتهما محاور فرعية :

*الأسطورة والتاريخ (الدهر/الإنسان) .

*التاريخ والأسطورة (الدهر – الإنسان الإنسان) "(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص5 .)

لقد كنت أتغيا من إيراد عبارة مفتاح كما قالها دون صياغتها بأسلوبي إلى أوقف القارئ على أن مفتاح للمرة الثانية لا يلتزم بحدود عنوانه ، فهو بالإضافة إلى ما قررناه سلفا من إفادته من النقد التراثي ، يقرر أن قراءة القصيدة ستكون في ضوء المناهج النقدية الحديثة دون تحديد للمنهج السيميائي ، وهذا ما جعلني للمرة الثانية أحتار مع عباراته وكلمه التي يرسلها دون أن ترتبط ارتباطا وثيقا بمنهجه .

لقد كنت أظن أن عبارة (على ضوء المناهج النقدية الحديثة) تعني مجرد حداثة المنهج السيميائي، لكن فحص الكتاب يجعل القارئ لا يجد مسوغا بأي حال أن تنفرد هذه الكلمة (سيمياء) بالعنوان دون سائر المناهج التي جاءت في تنظيره وتطبيقه .

إن تدبر صنيع مفتاح تنظيرا وتطبيقا يحيل على عدة مناهج ربما يكون الدرس السيميائي أضعفها، فالشعرية (المنهج الإنشائي) تطل برأسها بين الفينة والأخرى ، والتداولية التي تهتم بالمقصدية(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص52 .) تأخذ بنصيب وافر من عمله على صعيدي التنظير والتطبيق.

ويعتمد المنهج الفيلولوجي لدراسة أبعاد الكلمة الشعرية وإيحاءاتها ، وهو يقصد إليه لأنه يساعد على تصنيف المعاني واستغلال ما يلائم المقام ، مع استثمار ما توحي به الصور المرتبطة عن طريق المقاربة والمقارنة ، أو عن طريق التداعي (انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص44 .) .

هذا بالإضافة إلى أنه لم يلتزم منهجية القسمين فهو في القسم النظري يحلل القصيدة الرندية غير مرجئ ذلك إلى الجانب التطبيقي كما ارتضى في تقسيمه (انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص24.).

وربما يجيء الحديث دخيلا على الدرس إن في جانبه النظري أو التطبيقي ، نجد ذلك واضحا في الصفحات التي أفاض فيها عن آراء القدامى في القافية دالفا بعد ذلك إلى استعراض مجموعة من الآراء لعبدالله الطيب وإبراهيم أنيس وشكري عياد وغيرهم(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص38)

والغريب أنه يقول في دراسته بعد أن حاور كل هذه المناهج :" وقد التجأنا أحيانا إلى التحليل السيميائي متممين به النظرية الشعرية إذا وجدنا في بعض الأبيات عناصر سردية "(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص38 .).

التحليل السيميائي إذن باعتراف مفتاح طارئ على هاته الدراسة ، ويتم اللجوء إليه أحيانا ، وبشرط أن تحتوى الأبيات على عناصر سردية ! وإذا لجأ مفتاح إلى السيميائية فإنه يقتصر على سيميائية العوامل ، وكأنه يرى أن السيميائية خاصة بالجنس السردي ، ويمكن أن يفاد منها في الجنس الشعري إذا حوى سردا ، إنه بذلك يوحي بأنه لم يطلع على جهود أومبرتو إيكو بشأن تنشيط التراكيب لملء بياض النص ، وهو مفهوم سيميائي بامتياز لا علاقة له بجنس شعري أو سردي .

وعندما يأتي إلى الجانب التطبيقي تجتمع كل روافد ثقافة مفتاح في تحليله دون أن يقيد نفسه بمنهج بعينه ، فهو يتحدث عن الأصوات ودلالتها ، والألفاظ ومستوياتها ، والتراكيب وأنماطها ، وكأنك أمام درس أسلوبي ، لكنه ليس وفق خطاطهم إنه يستثمر كل هذه المفاهيم لتحليل النص ، ومن هنا يتوارى المنهج السيميائي إلا من إشارات ضئيلة هنا أو هناك ، كقوله : " إن هناك أجزاء منه كثيرة لا تبرز فيها الوظيفة الشعرية ، وفي هذه الأجزاء يترجح التحليل السيميائي ، ومعنى هذا الرأي أن ما توافرت فيه الشعرية لا يمكن أن يطبق عليه التناول السيميائي "(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص108.) .

وهذا رأي غريب من ناقد بحجم مفتاح ، إذ كيف ينفي جواز التحليل السيميائي لنص يحوي الوظيفة الشعرية ، ولكن إذا علمت أن مفتاح قد ألف كتابه هذا في زمن مبكر من تاريخ التطبيقات السيميائية في العالم العربي ، أدركت أن الريادة لها عثراتها التي لا ينبغي أن نضخمها كثيرا .

ويطبق منهاج العوامل كما يقدمه غريماس بقوله : " فالآمر هو الله والمأمور هو الدهر أو الأمر أو الرياح أو الأمطار ، أو الزلازل ...والموضوع المبحوث عنه : الأمم أو الملوك الطغاة الجبابرة أو الملوك المؤمنون ، والمعوقات :قوتهم ومقاومتهم ، المساعدات :قدرة الله وتناحرهم فيما بينهم ، وأما البطل فهو الدهر أو الزمان "(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص108 .) ثم يشرع بتقديم شرح مفصل لذلك.

ويقف عند بنية الاتصال والانفصال(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص109 .) محللا وفق الدرس البنيوي الذي يعد المهاد الذي انطلقت منه السيميائية ، فمفتاح يخرج من الرحم ويدخل مرة أخرى في وضع يشي بأن السيميائية لا تطاوعه في كثير مما يريد قوله ، يبدو ذلك في تساؤله الذي يقول فيه :"على أننا نساءل – بعد هذا – عما إذا كان قد قدم لنا الشاعر برنامجا سرديا تسلسلت فيه الأحوال والتحولات الناتجة عن القدرات والإنجازات على أساس العلاقة بين الذات والموضوع وتحول تلك العلاقة ؟لم يفعل الشاعر شيئا من ذلك، وإنما قدم لنا حالة واحدة مكررة ملخِّصة لماهية الإنسان ومأساته : الملك /الفقد. والقدرة /العجز، ومبينة لقوة أعلى منه متمثلة في ملك مطلق وقدرة غير محدودة"(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص111 .).

وبعد أن يصاب بالخيبة لا يعيد النظر فيما كتب وإنما يقول تاركا التحليل الشعري والسيميائي: " وبعد :فلنتجاوز التحليل الشعري والسيميائي لنتساءل عن مغازي ضرب المثل؟ يمكن أن يحضر إلى الذهن ثلاثة منها : 1- الدفاع عن الإسلام ورسالته...2-استخلاص العبرة وموعظة الناس ليزهدوا في الدنيا ...3- محاكاة حالة الأندلسيين التي كانوا يحيونها ...4- تقديس السلف ..." (انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص112 .) .

إن محمد مفتاح في هذا التحليل لا يحرم نفسه من أية معلومة يستنتجها سواء أكانت متعلقة بالمنهج أم لا ، وتلك مشكلة كبرى جرت عليه كثيرا من الاستطرادات التي جنحت بموضوعه نحو اتجاهات بعيدة عن عنوان كتابه .

ويعود إلى المربع السيميائي مرة أخرى عند وقوفه أمام لفظتي الحزن والسلوان الواردتين في نص أبي البقاء الرندي ، فيرسم المربع التالي(انظر : محمد مفتاح ، 1409- 1989م ، ص118 .):

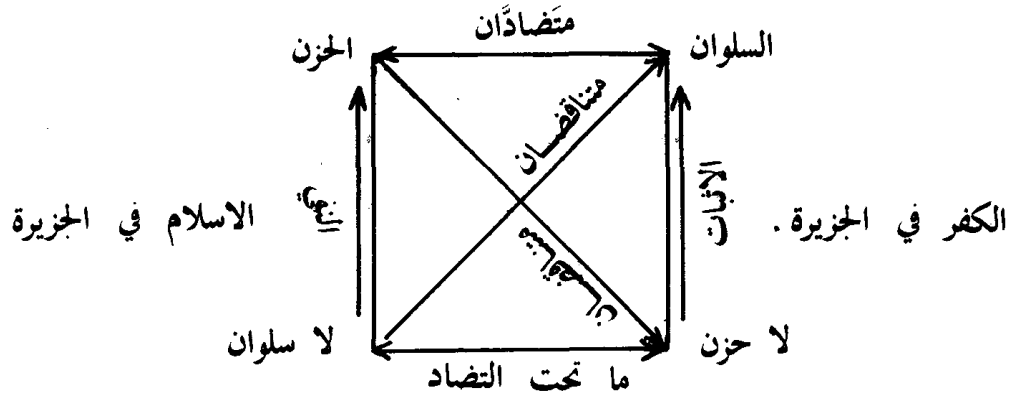

ذهاب وإياب ودخول وخروج تلك هي الطريقة التي تعامل بها محمد مفتاح مع المنهج السيميائي ، ولذا يمكننا أن نقرر مطمئنين في نهاية تحاورنا مع هذا المنجز أن مؤلفه قد بذلك جهدا كبيرا في دراسة النص ، ولكنه لم يلتزم بالمنهج الذي صدر به كتابه .

المحور الثاني. عبدالملك مرتاض والتحليل السيميائي للخطاب الشعري :

يعد الدكتور عبدالملك مرتاض من أكثر النقاد العرب احتفاء بهذا المنهج ، حيث عالج بآلياته الشعر القديم (من خلال دراسة المعلقات) والشعر الحديث (من خلال تحليله لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي) والسرد القديم (من خلال مقاربته حكاية حمال بغداد) والسرد الحديث (من خلال معالجته لرواية زقاق المدق) وقد سلك في تماسه مع هذه الأجناس - في الغالب - مسارب ملتوية شعر بها قبل قارئه ، بل ملَّ هو نفسه منها قبل أن يكملها ، يقول في دراسته السيميائية للمقامة الياقوتية بعد أن أحس بأن التحليل ترهل كثيرا وبدأ في التفلت من بين يديه :" فإننا وقد بلغ بنا المطاف إلى هذا الحد من الطول الذي لا نريده مسرفا ، وكيما يتلاءم أيضا ما أمكن مع مقدار مستويات التحليل الأخراة فإننا نؤثر التوقف لدى هذا القدر تاركين السائر للقراء "(عبدالملك مرتاض 1969م ، ص110).

هل من المنطق أن يتم التوقف فجأة لمجرد أن الكلام قد طال ؟ لماذا يطول إذن ؟ ولماذا نسير في مثل هذه القفار التي لا نهاية لها ، أو التي لا تنتهي إلا إذا أعلن الناقد النهاية؟ أحسب أن المراجعة الجريئة للآليات السيميائية وإمرارها بمرحلة الهضم والتليين كفيل برتق الفتوق التي تستبين عند التحليل الآلي ، هذا بالإضافة إلى أنه ينبغي عدم الركون حذو القذة بالقذة إلى تلك التنميطات إلا من خلال استثمار المعطيات بوصفها مفتاحا يُتَوسل به إلى فك مغاليق العمل الإبداعي .

وأحسب أن كتابه الذي عنونه بـ(التحليل السيميائي للخطاب الشعري : تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي) يعد من أفضل ما كتب على مستوى البرهنة على فاعلية هذا المنهج ، فقد عمد إلى نص السياب بعد مراس طويل مع السيميائية، ومن هنا فقد تلافى كثيرا من المآزق التي وقع فيها قبل هذا الكتاب .

ولعدم قناعة مرتاض باستقلال منهج ما بتحليل نص بعينه ، فإنه يعمد بين الفينة والأخرى إلى سحب آلية خارج منهجه إلى مجاله ليفيد منها كلما سنحت الفرصة يقول : " وعلى الرغم من أن مسعانا في هذا النص يحاول أن يتموقع في إطار السيميائيات فإننا مع ذلك لم نر بأسا من التحلل من هذا التموقع للانتشار خارج فضائه كلما ارتأينا ذلك ضرورة لإشباع النص بالتحليل ، ولإثراء مفهوم التشاكل بحيث يتغذى صفيحة حساسة قابلة وقادرة معا على التحرك في أي اتجاه شئناه لها " (عبدالملك مرتاض، 2005،ص8) .

ويلجأ مرتاض كثيرا إلى توسيع المفاهيم وعدم قصرها على ما تدل عليه ؛ ليكسب بذلك مزيدا من الحراك داخل النص ، نجد ذلك واضحا في صنيعه مع التشاكل حيث يقول :"وقد رأينا أن نتوسع في مفهوم التشاكل لدى التطبيق على نص شناشيل ابنة الجلبي لبدر شاكر السياب لينتقل من مجرد اختيار لوجه واحد من القراءة إلى شبكة مركبة متداخلة متماسكة ذات قدرة على التناول حين التعمق في بنية هذه القصيدة واستخراج كل ما نود استخراجه منها "(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص8) .

ويرى الكاتب أن المحلل يمكن أن يقدم مجموعة من القراءات لنص واحد تبعا للتطور الذي يمر به وانطلاقا من قدراته الثقافية وسعة تجربته يقول متحدثا عن نفسه : " يمكن أن نقرأ من منظورنا نحن على الأقل نصا واحدا واقعا ضمن إشكالية واحدة قراءة واحدة أو جملة من القراءات تبعا لما نتمتع به من سعة التجربة أو ضيقها أو عمق الثقافة الأدبية أو ضحالتها وكثرة التعامل مع النصوص الأدبية أو قلتها"(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص9) .

وبعد مقدمة منهجية لا بد منها - كما يرى هذا الناقد - للتعريف بالمنهج الذي يسلكه ولكشف مصطلحاته يصل إلى التطبيق على النص الأدبي الذي اختاره ، ذاكرا أن الاختيار كان اعتباطا(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص29) ، وهذه عادة مرتاض عند اقتناصه للأعمال الأدبية التي يقاربها ، فالمقامة الياقوتية التي سلف الحديث عنها في دراسته لمقامات السيوطي كان اختيارها اعتباطيا كما نُصَّ في مقدمة العمل .

يجري مرتاض قراءته لنص السياب في ثلاثة من المستويات :

المستوى الأول – يركز على التماس وجوه التشاكل والتباين في لغة الشعر العربي المعاصر من خلال أحد أكبر ممثلي هذا الشعر .

المستوى الثاني – يقوم على تقويم اللغة الشعرية لهذا النص في الشبكة الحيزية لمحاولة إفراز الأحياز فيه أو من حوله ، ثم لمحاولة منح الحيز الشعري شكلا سيميائيا يثبت به من دلالته الجامدة إلى مجالات حية متفاعلة متجاوبة متخاصبة مع ما يجاورها أو يكون له شأن بها .

المستوى الأخير – ويمثل فيه تحليل هذا النص الشعري من رؤية فنية وتقنية ، ويريد بذلك الجهاز الذي سخر لتأويل الألوان والمرئيات والملموسات والمشمومات والمذوقات ، وربما جاوز هذه المجالات إلى ممثلات وقرائن أخرى لم يطبق عليها السيميائيون الغربيون(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص29) ، وهنا نلحظ الجانب التوسيعي الذي لجأ إليه مرتاض في مقاربته .

ويعمد إلى قصيدة شناشيل ابنة الجلبي فيقطعها تقطيعا إجرائيا بلغ أحد عشر مقطعا ، وكل مقطع يتشكل من جملة من وحدات القراءة أدناها ثلاث وأعلاها تسع(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص30).

ومع هذا التقطيع الذي لجأ إليه مرتاض يرى أن النص مترابط كل الترابط " بل متراص يشد بعضه بعضا ، ولكن الذي أحاجنا إلى هذا التقطيع هو ما نعلم من تعود القارئ على تقسيمات تتيح له أن يتابع النشاط التحليلي مرحلة مرحلة من النص "(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص30).

إن مرتاضا بدا في هذا العمل الذي يعد امتدادا لأعمال أخرى جرب فيها المنهج السيميائي أكثر صلابة أمام مفاهيم هذا المنهج وآلياته ، فقد أضحى يستعمل أسلحة حدادا لتشريح النص ومعالجته ، وما كان لتلك المباضع أن تقف حائرة أمام تلك الآليات كما رأينا في تطبيقات سابقة له ، إنه يعمد مباشرة إلى الإجراء المستوياتي مفصحا عنه منذ العنوان ، ومنظرا له في مقدمة منهجية تكشف طريقة تماسه معه .

أحسب أن مرتضا في هذا العمل وإن ذكر أن اختياره للنص كان اعتباطا لكن عبارات النص وكلمه ما لبثت أن استحالت في يده إلى حمل وديع يمرر يده على صوفه الناعم بكل راحة واستمتاع ، لقد كشف التحليل عن أن هذا الناقد كأنما ألف النص منذ زمن طويل وأن طول الصحبة معه قد قادت إلى أن ينفحه النص بما يستطيع من طاقاته وعوالمه .

إن الناقد هنا قد ابتعد قدر الإمكان عن الجانب الجامد في الدرس السيميائي ، ويتمثل ذلك في مربع غريماس الذي لا بد من تطبيقه على العمل الأدبي عند كثير من النقاد إذا أزمع المحلل مقاربة النص من منظور سيميائي ، وهذا ما جعل كثيرا من الدراسات العربية تقع أسيرة الجمود والنمطية .

ولعل أهم ما يؤخذ على مرتاض في تحليله هذا تحميله اللفظة في بعض الأحيان أكثر مما تحتمل وإدارة عبارات هي إلى الاستعراض أقرب منها إلى تلمس الدلالة السيميائية ، تأمل وفقته عند لفظة (النهر) واعذرني على الإطالة في النقل ، لكن هذا المأخذ لن يتضح إلا إذا شعرت معي بتحويله الحبة إلى قبة يقول :" (النهر) والنهر منقعر من الأرض يجري فيه الماء، والنهر من حيث هو ماء معلول لعلة ماء آخر يمكن أن ينصرف أساسا إلى حقل القرينة ، كما يجوز أن يؤول تأويلا مماثليا ، وفي الحالين الاثنتين يتخذ له طبيعة بصرية وسمعية جميعا.

فبالقياس إلى التأويل المماثل يجوز أن نراعي النهر ، وهو مجتمع من الماء الثر ، وذلك على أساس أنه سمة حاضرة تستحضر سمة غائبة تماثله ، وهي مادة الماء أيضا إذ لا يخلو النهر من أن يتشكل إما من أمطار غزيرة همت على منطقة مهيأة لإجراء ماء هذا النهر أو تعزيز هذا الماء أو إكثاره ، وإما من شلالات متفجرة بسيول من الماء ، أو من مدافع تتبجس من أعماق الأرض ، وفي كل الأطوار يكون الماء الثاني ، الذي هو النهر استمرارا للماء الأول الذي وصفنا أطواره الثلاثة . فلا نحسب إذن أن يمتنع التأويل المماثل على أساس التماثل الموجود بين الحالين الاثنتين ، ولا سيما الحال المترتبة عن تهاتن الأمطار ، حيث لا يكون التجانس المطلق ، وإنما يكون تشابه فقط ، وعلى الرغم من وجود الماء في الحالين ، وهو مظهر يجعلهما متجانستين إلا أن الماء في الحال الأولى يختلف عنه في الحال الثانية كما أومأنا إلى ذلك من قبل .

على حين أن المظهر القريني للنهر يكمن في أنه معلول لعلة الأمطار ، أو المدافع والمنابع أو الشلالات أو كل الروافد التي يمكن أن ترفده ، فلا نهر إلا بمياه تأتي إليه من بعيد أو قريب لكي يزدخر بها فيجري . فالسببية تجعل منه مظهر قرينيا ، كما إن الشبه الضعيف قد يجعل منه مظهرا مماثليا .

ولعل من الواضح أن جريان الماء في هذا المنقعر الذي تطلق عليه اللغة العربية (النهر) أمر قصد في هذه اللغة الشعرية قصدا ، وهو يرمي إلى تحميل هذه اللوحات الحيزية التي كان الشاعر كأنه يود رسمها بريشته لا بلغته "(انظر: عبدالملك مرتاض، 2005،ص124) .

المحور الثالث – محمد العبسي والمقاربة السيميائية للامية أوس بن حجر :

حاول هذا الناقد - في بحث محكم - دراسة لامية أوس بن حجر تحت عنوان : (تشكل الذات في لامية أوس بن حجر : مقاربة سيميائية) ، وقد انطلق في معالجته من كون القصيدة مثالا من أمثلة جدل الأجناس الأدبية عامة والشعر والسرد خاصة(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص233 .) .

وقبل أن يدلف إلى التماس مع هذا العمل الإبداعي قدم مهادا نظريا تحدث فيه عن مفهوم السيميائية من خلال مصادرها الأصيلة ، ثم أشار إلى أهمية العلامة (sign) في الدرس السيميائي ناصا على أنها وحدة ذات وجهين : أولهما الدال وهو الصورة الحسية السمعية وثانيهما المدلول وهو الصورة الذهنية التي تستدعيها الصورة السمعية إلى الذهن ، مؤكدا على أن الكلمة لا تعد علامة إلا باتحاد وجهيها وبتأويل الناقد لها(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص233 .) .

ولا يغفل العبسي الوقوف عند تصنيف بيرس للعلامة(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص236 .) ، والأطوار الثلاثة التي يمر بها النص السردي عند غريماس(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص238 .) مؤكدا على أن قراءة تلك المستويات عند التطبيق تتمم بطريقة معكوسة (محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص239 .) .

وعندما يأتي جانب المراس التطبيقي يقسم العبسي نص أوس إلى مجموعة من المقاطع بحسب ما ينطوي عليه النص من التحولات ، وقد جاءت تلك المقاطع ثمانية بحسب ما اهتدى إليه من حدود فاصلة بينها ، ويمكن حتى تتضح الصورة أن نمثل لذلك بالمقاطع الثلاثة الأولى حيث يقول :

" **المقطع الأول-** البيتان 1-2 : ما يميز هذا المقطع هو السرد بضمير الغائب (صحا ، قلبه ، سكره ...) وفي الزمان الماضي (صحا ، فتأملا ، كان) وعلاقة الذات المشار إليها بضمير الغائب بأم عمرو .

المقطع الثاني - البيتان 3-4 : ينماز بتحول السرد إلى سرد بضمير المتكلم في الزمان الحاضر (أعتب – أغفر) وتحول السارد إلى شخصية من شخوص القصة ، وينماز أيضا بالانفصال التمثيلي الذي يتجلى في مغادرة أم عمرو مجرى الأحداث ودخول ابن العم .

المقطع الثالث – (البيتان 5-6) في هذا المقطع وقع انفصال نحوي ، فبعد اطراد العطف في المقطع الثاني (أعتب ... وأغفر) بدأ المقطع الثالث من غير حرف عطف (أقيم)ووقع أيضا انفصال تمثيلي بمغادرة ابن العم "(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص240 .) .

ويلحظ القارئ لتقسيم المقاطع عند العبسي دقة وضبطا ، فهو يحرص عند فصل المقطع عن قرينه أن يكون هذا الفصل مسوغا من ناحية المعنى والأسلوب ، مما أبعد صنيعه عن الاعتباطية ، ولكني ألحظ هفوة ندت عنه أثناء تأطيره لحُزَم الأبيات تمثلت في سقوط البيت السابع من بين يديه دون أن يشعر ، إذ ليس له ذكر في تلك التقسيمات ، ولا أظنه صنع ذلك عمدا ؛ لأنه بكل تأكيد سيحتاج إلى أن يعلل لهذا الصنيع الغريب ، وهو لم يقم بذلك .

وإذا كان العبسي لم يدخل حتى هذه اللحظة في الأجواء السيميائية التطبيقية فإنه بعد أن صنف المقاطع أطال الوقف عند مدار النص وفق رؤية الناقد السيميائي أمبرتو إيكو متلمسا منازل الشك ومنازل اليقين فيه ، وقد كشف في هاته المعالجة عن بصر بقواعد المنهج وإدراك لمفاهيمه(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص241 .).

ويظهر الإيغال المنهجي مع مبحث التدليل والتأويل حيث يتلمس مسار الذات داخل النص من خلال مجموعة من الخطوات ، ذاكرا تحت ما سماه (إغفال السنن والكمون) أن الذات في البيتين الأولين على الرغم من صحوها من السكر (صحا قلبه من سكره فتأملا) قد ظلت طريقها بتعلقها بأم عمرو وغفلت عن السنن ، ذلك أنها تعلقت بأم عمرو التي جعلت رضاها عن الذات وحبها لها مشروطا بأن تحتمل أذاها الذي بلغ حد الموت ، بدل أن تبدأ هي بالتضحية والتفاني ، فخالفت مقتضى الأمومة ومقتضى العقد الضمني المتوقع ، وعلى ذلك فإن قيمها التي تشكل سننها الرمزي تعد زائفة ، وهذا من الأسباب التي جعلت الذات تضل طريقها أو تغفل عن الذي ينبغي لها أن تمتثله في سبيل الوصول إلى أم عمرو(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص252 .) ، وبعد كشف مرحلة الذات في هذا المقطع يجلي العبسي الأدوار السردية له معتمدا على مربع غريماس الشهير .

ينتقل الباحث بعد ذلك إلى مرحلة أخرى من مراحل تشكل الذات يسميها (الذات بين تزييف الوعي ووعي التزييف) وفيها يعرض علاقة الذات بابن العم الذي لا يقصد به شخص بعينه وإنما يعادل به موضوعيا القبيلة ، ويكشف الباحث عن أن الذات بدأت في اكتشاف نفسها من خلال التعرف على القيم الزائفة لابن العم الذي يعادل موضوعيا القبيلة(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص255 .) ، ويستعين في ختام هذه المرحلة بالمربع الغريماسي لتوضيح الصورة .

في المرحلة الثالثة التي يسميها (الذات التكييف والتأهيل) تبدو الذات أكثر ثقة بنفسها ، فهي تهدد القبيلة التي تشتمل على فساد قيمي ناتج عن كونها لا ترفع شعار الحق والخلق الفاضل ، وإنما المال والجاه هو المعول عليه في احترام الناس(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص260.).

وفي مرحلة (الذات بين الكمون والظهور) يذكر العبسي أن الذات بدأت في تسليح نفسها استعدادا للمواجهة بعد تهديد القوم بالتحول عنهم إذا استمروا على قيمهم ، وقد جاء هذا التسلح معتمدا على صنفين من الأسلحة ، أحدهما معد سلفا وهو السيف والرمح ، ومن هنا رأينا الشاعر ينسبهما على مكانهما بقوله : صولي ... رديني (محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص260 .) .

أما الثاني فهو من إعداد الذات وهو القوس التي استغرق صنعها والحديث عنها مع السهام ثلاثة وعشرين بيتا ، فيها وقفة مطولة عند الطريقة التي تمكنت فيها الذات من تحصيلها مع سهامها ، وقد سمى العبسي هذه المرحلة ب(الذات بين الإنجاز والظهور)(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص265 .) .

ونتيجة لهذه المرحلة تأتي مرحلة (مفهوم الانتماء) التي يصحح فيها الشاعر كثيرا من مفاهيم العشيرة ، ليصل إلى المرحلة الأخيرة التي يهدم فيها الآخر ويمجد ذاته التي بناها على أنقاض مجد القبيلة الزائف(محمد العبسي ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م ، ص274 .) .

وهو في المراحل السيميائية الماضية لا ينفك عن رصد علاقة الذات مع الأقطاب الغريماسية ؛ ليكشف خصوصية كل مرحلة من مراحل تقلبات الذات .

وقد كشفت الدراسة عن حجم الجهد العلمي الكبير الذي بذله العبسي في مقاربة النص ، كما أبانت عن تمكنه من هضم كثير من المفاهيم والآليات السيميائية .

هذا بالإضافة إلى أن مساحة التأويل في هذه الدراسة كانت واسعة للغاية ، وبحجم تلك السعة كان الإقناع حاضرا لدى تلمس تساوق تلك التأويلات مع ما تدفع به القصيدة من معان غير قارة .

لكن النمطية كانت تطل برأسها أحيانا حينما يحس العبسي أنه لا بد في كل مقطع من استجلاب مربع غريماس لإكمال الدرس السيميائي ، مما يشعر القارئ بأنه يرى أن التحليل ناقص من الناحية السيميائية إن لم يتم هذا الاستحضار ، وهذا الفهم قد ورط الباحث في تكرار غير مجد في مثل هذا الدراسة الرائدة .

وأخيرا فإني آمل أن أكون قد وفقت في رسم صورة واضحة المعالم عن تفعيل آليات المنهج السيميائي في الدرس العربي من خلال هذه الوقفات الثلاث مع مجموعة من الدراسات التي اختلفت في استثمار تلك الأسس والمفاهيم .

المـــــــــــراجـــــــع

أولا – الكتب :

1 -دانيال تشاندلر ،أسس السيميائية ، ترجمة طلال وهبة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت، 2008م .

2 -ا عبدالملك مرتاض ، لتحليل السيميائي للخطاب الشعري : تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005.

3 -بيار غيرو ، السيمياء ، ترجمة إنطوان أبي زيد ، منشورات عويدات ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 1984م .

4 -رشيد الإدريسي ،سيمياء التأويل : الحريري بين العبارة والإشارة ، الطبعة الأولى ، المدارس للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، 1421ه-2000م .

5 -عبدالواحد المرابط ، السيمياء العامة وسيمياء الأدب ، دار الأمان ، الطبعة الأولى ، الرباط ، 2010م .

6 -آن إينو وآخرون ،السيميائية : الأصول والقواعد والتاريخ ، ترجمة رشيد بن مالك ، تقديم عزالدين المناصرة ، دار مجدلاوي ، الطبعة الأولى ، عمان ، الأردن ، 2008م .

7 -جوزيف كورتيس ، سيميائية اللغة ، ترجمة جمال حضري ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، الطبعة الأولى ، بيروت، 2010م .

8 -طائع الحداوي ، سيميائيات التأويل :الإنتاج ومنطق الدلالة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، 2006م .

9 -أمبرتو إيكو ، السيميائيات وفلسفة اللغة ، ترجمة أحمد الصمعي ، الطبعة الأولى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2005م .

10 - محمد مفتاح ، في سيمياء الشعر القديم : دراسة نظرية وتطبيقية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1409ه- 1989م .

11 - عبدالملك مرتاض ،مقامات السيوطي :دراسة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1969م .

ثانيا – الدوريات :

12 - المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها ، المجلد 4 ، العدد 2 ، ربيع الأول 1429ه /نيسان 2008م .
13 - مجلة حياة الثقافية ، تونس ، العدد 8 ، أبريل، 1980م .
14 - مجلة كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبدالله ، تطوان ، العدد 1 ، 1986م .